مدينةُ الكاظميّة

تاجُ الزَّوْرَاء، ومَثوى الجوادَين عليهما السلام

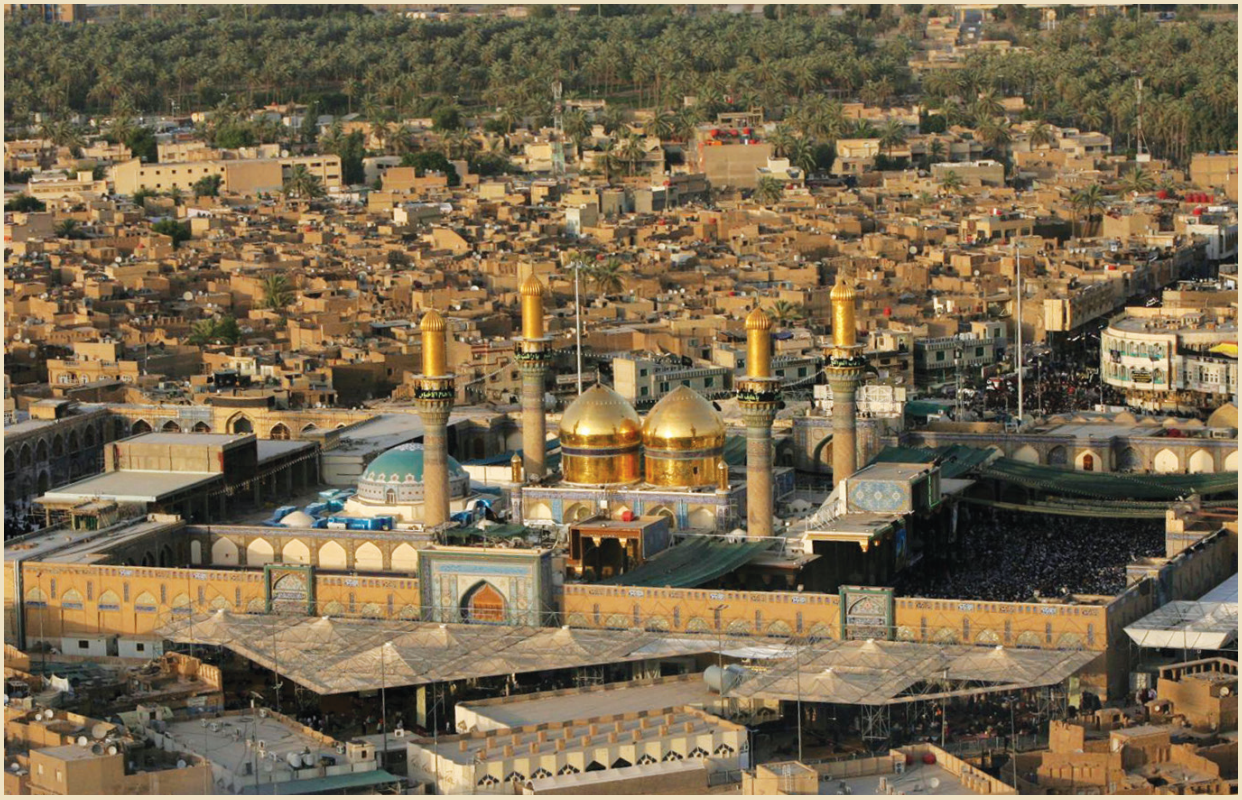

مقام الإمامين الكاظمَين عليهما السلام وسط مدينة الكاظمية

المؤرّخ السّيد حسن الأمين

حَظِيتْ «مقابر قريش» في الجانب الغربيّ من مدينة بغداد بشرفٍ خاصّ وجلالٍ منفرد بعد أن دُفن فيها الإمام الشّهيد موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، ثمّ حفيدُه الإمام الشّهيد محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام، الأمر الذي أدّى إلى انطلاق حركة عمرانيّة في جوار المرقدَين الشّريفَين، بدءاً من أواخر القرن الهجريّ الثّاني، نهض بها الموالون للأئمّة من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، استمرّت طوال القرون التّالية، ولمّا تزل، فاستقامت البقعةُ مدينةً عامرةً عُرفت بنسبتها إلى الإمام الكاظم عليه السلام، فسُميّت: «المشهد الكاظميّ»، و«بلدة الكاظم عليه السلام»، و«الكاظميّة»، و«بلدة الكاظمَين» أو «بلدة الجوادَين» عليهما السلام.

وتُعدّ الكاظميّة اليوم من المراكز الكبيرة التي يقصدها الزّوّار من كلّ مكان، وإليها تنتسب الكثير من البيوتات العَلَويّة والأُسَر العلميّة والأدبيّة التي أدّت دوراً فعّالاً في صناعة تاريخ العراق.

هذا التّحقيق، يُعرّف بأبرز المحطّات في تاريخ المدينة المقدّسة، اختصرناه من المجلّد التّاسع من (دائرة المعارف الإسلاميّة الشّيعيّة) للمؤرّخ السّيد حسن الأمين رحمه الله.

إنّ أوّل ما نعلمه عن منطقة الأرض التي تَجثِم «الكاظميّة» اليوم في طرفها الشّرقيّ أنّها كانت جزءاً قريباً من الحدود الفاصلة بين دولة الآشوريّين من شمالها والكيشيّين من الجنوب، في العصور البابليّة الأولى، أي قبل الميلاد ببضعة عشر قرناً، ويُروى أنّ منازعاتٍ وحروباً قد وقعت فيها أو قريباً منها بين الدّولتَين.

ويتّضح من دراسة الأنهار والقرى والمدن المحيطة بدجلة، أنّ المنطقة التي شُيِّدت لاحقاً مدينة بغداد عليها كانت عامرةً بريّها ومزارعها منذ أقدم العصور. وأرض الكاظميّة الحاليّة كانت جزءاً من هذه المنطقة العامرة الخضراء بلا شكّ، وإن لم نكن نعرف شيئاً من تفصيل ذلك.

منظر جوي لمدينة الكاظمية ويبدو المقام المقدّس وسط الصورة

وآخر عهدنا بأرض الكاظميّة قبل تأسيس بغداد أنّها كانت تُسمّى «الشُّونيزيّ»، فإنْ صدقت الرّواية فمقتضاها أنّ هذه التّسمية قد أُطلِقت بعد انتهاء العهد السّاساني، لأنّ التّسمية عربيّة.

يقول الخطيب البغداديّ حول هذه التّسمية: «مقابر قريش كانت قديماً تعرَف بمقبرة الشّونيزيّ الصّغير، والمقبرة التي وراء التُّوثَة تعرَف بمقبرة الشّونيزيّ الكبير، أخَوان يقال لكلّ واحد منهما: الشّونيزيّ، فدُفن كلّ واحدٍ منهما في إحدى هاتَين المقبرتَين ونُسبت المقبرة إليه».

مقابر قريش

في عام ١٤٥ للهجرة ابتدأ المنصور الدّوانيقي العبّاسيّ بتأسيس مدينته المدوَّرة «بغداد» أو «الزّوراء»، واستتمّ البناء - في رواية الخطيب البغداديّ - في سنة ١٤٦ للهجرة، ثمّ استتم بناء سُوْر المدينة وفرغ من خندقها وسائر شؤونها في سنة ١٤٩ للهجرة.

ولما أنهى المنصور عمارة مدينته اقتطع «الشّونيزيّ الصّغير» المجاورة لها من جهة الشّمال فجعلها مقبرة، ولعلّه اعتبرها خاصّة بعائلته وأُسرته فسمّاها «مقابر قريش»، وقد تُسمّى أيضاً «مقابر بني هاشم»، ويروي الشّيخ المفيد أنّها «كانت مقبرةً لبَني هاشم والأشراف من النّاس».

* مع مرور الأيّام دُرِس اسمها «الشُّونيزيّ الصّغير»، وعُرفت بـــ«مقابر قريش»، وتوالى الدّفن فيها بدءاً من العام ١٥٠ للهجرة.

* وفي عام ١٨٣ للهجرة لخَمسٍ بَقِينَ من رجب استُشهد الإمام موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السّلام، وكان قد دُسّ إليه السُّم من قِبل السِّنديّ بن شاهك بأمرٍ من هارون العبّاسيّ، وحُمل جثمانُه الطّاهر إلى مقابر قريش فدُفن هناك حيث قبرُه الشّريف الآن، وهو موضعٌ كان

باب المراد - المشهد الكاظمي الشريف

صلوات الله عليه ابتاعَه لنفسه، كما في بعض الرّوايات.

* وفي عام ٢٢٠ للهجرة في آخر ذي القعدة استُشهدَ ببغداد الإمام أبو جعفر محمّد الجواد بن عليّ الرّضا بن موسى بن جعفر عليهم السلام، ودُفن في تربة جدّه أبي إبراهيم موسى بن جعفر عليه السّلام.

* وأصبح السّكن حول مقابر قريش - بعد دفن الإمامَين فيها - في ازديادٍ واتّساع على مرور الأيّام، وإنْ لم نعثر في المصادر التّاريخيّة على نصّ خاصّ يحدّد لنا تاريخاً تحقيقيّاً لبدء السُّكنى هناك. لكنّ المؤكّد أنّه أخذ طريقةَ التّجمع والتّقارب بعد دفن الإمامين عليهما السّلام، حيث دفعت العقيدة الدّينيّة بعض النّاس إلى السُّكنى حول المشهد لحمايته وإدارته وإيواء زائريه، وكان هذا التّجمع حول المشهد هو النّواة الأولى لمدينة الكاظميّة.

* ويُستفاد من مجموع النّصوص التّاريخيّة المتعلّقة بالعصر العباسيّ الأوّل أنّ هذه المنطقة المغمورة قد قفزت قفزاتٍ واسعةً إلى الإمام فأصبحت جزءاً متّصلاً ببغداد، بل محلّةً من محلّاتها، عامرةً بالسّكّان زاخرةً بالعُمران، شأنها في ذلك شأن سائر المحلّات البغداديّة الشّرقيّة والغربيّة.

في القرن الرّابع

* في أوائل القرن الرّابع كانت المنازل حول «مقابر قريش» كثيرة، وكان بعض تلك المنازل مشتملاً على حُجرات، ولكلّ حُجرة بابٌ أو أكثر.

* وفي عام ٣٣٤ للهجرة قبض معزّ الدّولة البُوَيْهيّ على أزمّة الحكم في بغداد، وكان من جملة أعماله خلال أيّام مُلكه: تَشييد المرقد الكاظميّ تشييداً رائعاً في عمارته، وإنزالُ جماعة من الجنود الدَّيالِمَة ومعهم أفراد من المَراوزة [جمع المَروزيّ نسبةً إلى مدينة مَرو] هناك لغرض الخدمة والحفاظ على الأمن. وكان ذلك سبباً جديداً وذا أهميّة في توسُّع السّكن وانتشار الدُّور حول المشهد. وأصبح النّاس يفدون في أعداد غفيرة إلى الكاظميّة في الجمُعات والمواسم والمناسبات الدّينيّة، كذكرى عيد الغدير وذكرى شهادة الإمام الحسين عليه السلام، وغيرهما من المناسبات.

جانب من مدينة الكاظمية (١٩٣٧م)

* وفي النّصف الثّاني من القرن الرّابع تأصّل السّكنُ في هذه المدينة حتّى صحّ أن يُطلَق على المقيمين هناك اسم السّكّان، كما حدث عندما أمر عضد الدّولة البويهيّ بإطلاق الصّلات لأهل الشّرف وغيرهم من ذوي الفاقة.

* وكان من أسباب ازدياد العمران في هذه المدينة النّاشئة أن البويهيّين حفروا ذُنابةً لنهر دُجَيل وساقوا الماء منها إلى مشهد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

في القرن الخامس

* يستفاد من النّصوص التّاريخيّة المتعلّقة بتلك الفترة تَزايدُ السّكّان حول المشهد في أواسط القرن الخامس، وأنّ كثيراً منهم من العلويّين، كما يستفاد منها أيضاً وجود دُور للسُّكنى داخل سور المشهد ودُور خارجه. جاء في رواية ابن الجوزيّ في حوادث سنة ٤٥٠ للهجرة ما نصّه: «وحُمل الخليفة [العبّاسيّ] إلى المشهد بمقابر قريش وقيلَ له: تبيتُ فيها، فامتنع وقال: هؤلاء العلويّون الذين بها يُعادونني».

* في السّابع من صفر سنة ٤٤٣ هجريّة اجتمع عددٌ هائل من النّواصب واقتحموا المشهد الشّريف، ونهبوا ما فيه، وارتكبوا الفظائع، وهدموا القبّتَين الشّريفتَين.

في القرنَين السّادس والسّابع

* في سنة ٥١٧ للهجرة كرّر النّواصب فعلتَهم، حيث اقتحموا العتبة الكاظميّة، وأماطوا اللّثام عن مبلغ حقدهم على آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، ويُروى أنّ المقتنيات المنهوبة استُرجعت من سُرّاقها لاحقاً.

* والظّاهر أن الكاظميّة قد أصبحت في هذه الفترة مأهولةً بالسّكّان بنحو يصحّ أن يقال فيه: «أهل مشهد موسى بن جعفر»، كما يقال: «أهل الكَرْخ» أو «أهل المختارة»، وكانوا كثيري العدد.

* وفي النّصف الأوّل من القرن السّابع تعرّضت مدينة الكاظميّة لعدّة فيضانات خرّبت معالمَها، وفي هذه الفترة تمّ تشييد سور جديد للمشهد.

استقلال مدينة الكاظميّة

انطوى العصر العباسيّ وبلدةُ المشهد الكاظميّ «محلّةٌ عامرة، فيها خَلقٌ كثير، ذات سور، مفردة». والرّاجح أنّ انفراد الكاظميّة عن بغداد قد تحقّق في أواسط القرن الخامس إثر الفِتَن والاضطرابات التي عمّت العراق وخصّت بغداد نفسها، فدمّرت البلاد وأشاعت الخراب، وسبّبت انكماش بغداد على نفسها.

وربّما يؤكّد ذلك ويؤيّده تعيين النُّقَباء الخاصّين بالمشهد الكاظميّ - ابتداءً من أوائل القرن الخامس - ولم يكن قبل ذلك، حيث يرشدنا إلى بدء انفراد البلدة وازدحامها بالسّكّان أيضاً بالشّكل الذي تدعو فيه الحاجة إلى تعيين نقيب خاصّ بها، غير نقيب العلويّين أو الطّالبيّين ببغداد.

ومهما يكن من أمر، فإنّ بلدة المشهد الكاظميّ قد أصبحت في أُخرَيات العصر العبّاسيّ مدينة مُفردَة تضمّ سائر مقتضيات المدن ومرافقها من دُور وسكّان وعمارة ومؤسّسات.

وصف مدينة الكاظميّة من الدّاخل

كان المشهد في وسط المدينة قريباً من طرفها الشّماليّ الغربيّ، وقد اشتمل على: دار للأيتام، ودار لتعليم الخط والقراءة والقرآن الكريم، ومكان خاصّ لدراسة الفقه والحديث، ومكتبة، ودار لاستراحة الزّائرين وإطعامهم في شهر رمضان في الأقل، ومارستان «مستشفى» فيه الأدوية والأشربة والمعالجون، ونقيب يُشرف على شؤون المشهد والبلدة.

وكانت المناسبات الدّينيّة، في الفترة الأخيرة من العصر العباسيّ، غاصّةً بجماهير الزّائرين. ثمّ كانت أُسَر علويّة متعدّدة قد

اختارت الكاظميّة مقراً لسُكناها كـ «بني الحدّاد» و«بني نازُوك»، وآخرين غيرهم.

كما كان من جملة سكّانها أعلام فقهاء وأدباء مبرّزون وعلماء دين لامِعون، عرفنا منهم أفراداً وضاع عنّا الباقون، بسبب إهمال التّاريخ لهم أو نِسبتهم إلى بغداد، تغليباً لها على كلّ ما يجاورها من محلّات وبقاع.

في الغزو المغوليّ

في الشّهر الأوّل من عام ٦٥٦ للهجرة حاصر الجيش المغوليّ بغداد، وتمّ احتلالها يوم الاثنين الثّامن عشر من المحرّم أو بعد ذلك بأيّام، ورافق هذا الاحتلال عددٌ من حوادث التّخريب والتّلف وضروبٌ من المصائب والنّكبات.

وعلى الرّغم من خروج بلدة المشهد الكاظميّ عن خطّ زحف الجيش المحتلّ وعدم وجود أيّة قوّة عسكريّة عبّاسيّة فيها، فقد أُصيبت بشيء من ذلك الخراب العام، وسارع الوزير ابن العلقميّ إلى تدارُك الأمر بإصلاح ما تلف وتجديد ما اندثر من البلدة، كما قام صدر الوقوف شهاب الدّين عليّ بن عبد الله بعمارة ما أتلفَه الحريق في المشهد المطهّر.

القرن الثّامن، فما بعد

* ما أن أطلّ القرن الثّامن حتّى كانت المدينة قد سارت أشواطاً في طريق تقدّمها، وبدأ استعمال لقب «كاظميّ» في هذه الفترة، حيث جاء في ترجمة السّيّد عبدالكريم آل طاووس - وهو من سكّان الكاظميّة في أواخر القرن السّابع - أنّه «حِلِّيُّ المَنشأ، بغداديُّ التّحصيل، كاظِميُّ الخاتمة».

* وفي أوائل القرن العاشر الهجريّ دخلت الكاظميّة عهداً جديداً من الشّأن والاستقلال الإداريّ الدّاخليّ، وأصبحت مدينة لها كيانها ودورها في الشّؤون العامّة. وبدأت الخطوة الأولى نحو هذا العهد الجديد في سنة ٩١٤ للهجرة - وهي سنة دخول الصّفويّين إلى العراق - فقد زار الشّاه إسماعيل الصّفويّ الكاظميّة وأمر بتشكيل إدارة خاصّة بالبلدة ومحكمة شرعيّة يرأسها قاضٍ يحمل لقب «شيخ الإسلام»، وقد عُيّن الشّيخ عبد الله قنديل بهذا المنصب. كما أمر الشّاه بتشييد المشهد الكاظميّ تشييداً رائعاً فخماً، وتعيين الرّواتب لخدّام المشهد والمسؤولين عنه.

* وفي سنة ٩٤١ للهجرة احتلّ الملك سليمان العثمانيّ العراق، لكنّ وضعَ الكاظميّة السّابق لم يتغيّر، واستمرّت عمليّة عمارة المشهد الشّريف.

* وفي القرون الأربعة الأخيرة - أي منذ الاحتلال العثمانيّ حتّى نهاية الحرب العالميّة الأولى - حفل العراق بما لا يُمكن وصفه من مآسي الأوبئة والطّواعين والكوارث الطّبيعيّة، وكانت هذه الحوادث من العنف والشّدّة والتّتابع بشكلٍ حَدَّ من تطوّر العراق كلّه إلى أبعد الحدود، ما ارتدّ بشكلٍ أو آخر على مدينة الكاظميّة.

وفي هذه الحقبة أصبحت الكاظميّة قضاءاً يديرُه «قائمُ مقام»، كما أُنشئ جسر من الخشب عائم بين الكاظميّة والجانب الشّرقيّ من بغداد، ويُعرَف اليوم باسم «جسر الأئمّة».

جسر الأئمة عليهم السلام على نهر دجلة

النّشاط العلميّ والثّقافيّ

كان الوضع العلميّ والفكريّ للكاظميّة أكثر تقدّماً واتّساعاً وعُمقاً من وضعها العمرانيّ، فقد أنجبت هذه البلدة، خلال عمرها الطّويل، عدداً كبيراً جدّاً من الفقهاء والأدباء والشّعراء والمفكّرين والأطباء.

وضمّت الكاظميّة بين جوانحها مجموعة من المدارس الدّينيّة التي تُعنى بتدريس العلوم الإسلاميّة، وكانت عامرة زاهرة بطلّابها وأساتذتها، وفي طليعتها مدرسة الفقيه السّيّد محسن الأعرجي، المؤسَّسةُ في أوائل القرن الثّالث عشر الهجريّ، كما ضمّت البلدة عدداً كبيراً من المكتبات الضّخمة الحافلة بنفائس المخطوطات وأمّهات الكتب.

وإن صحّ ما يُروى من تأسيس أوّل مطبعة عراقيّة حَجريّة في الكاظميّة في سنة ١٢٣٧ للهجرة، فإن ذلك يُعدّ في صدر قائمة النّشاط العلميّ لهذه المدينة في النّصف الأوّل من القرن الماضي.

الوضع السّياسيّ

من النّاحية السّياسيّة كان للكاظميّة رأي وصوت في الشّؤون والمشاكل العامّة منذ العهد الصّفويّ حتّى نهاية العهد العثمانيّ.

وكان أبرز مواقف الكاظميّة السّياسيّة: موقفها خلال الحرب العالميّة الأولى عندما هجم البريطانيّون على البصرة، ووصلت برقيّة استنجاد من وجوه البصرة إلى علماء الكاظميّة بتاريخ يوم الاثنين ٢٠ ذي الحجّة سنة ١٣٣٣ للهجرة، فأصدر العلماء أمراً بوجوب الدّفاع على كلّ مسلم.

وفي يوم الثّلاثاء ١٢ محرّم سنة ١٣٣٣ للهجرة خرج السّيد مهدي الحيدري قاصداً ساحة الحرب وبصحبته الشّيخ مهدي الخالصي وجماعة من المجاهدين، وخرجت البلدة بأسرها لتشيّع ركب الجهاد الزّاحف، وفي هذه السّنة تألّفت «الجمعيّة الإرشاديّة» لجمع التّبرّعات للمجاهدين في حربهم ضدّ الانكليز.

ثمّ تواردت على الكاظميّة وفود العلماء الزّاحفين نحو المعركة من النّجف الأشرف وكربلاء، وكانت البلدة تستقبل كلّ واحد منهم بمنتهى التّرحاب والتّكريم وتودّعه بمثل ذلك.

واحتلّ الجيش البريطانيّ الكاظميّة في ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٣٥ للهجرة.

وفي سنة ١٣٣٨ للهجرة انطلقت من الكاظميّة الثّورة لإلغاء الانتداب البريطانيّ، بقيادة العلماء المجاهدين من آل الصّدر وآل ياسين والحيدريّ والخالصيّ، وفي شهر رمضان من هذه السّنة أفتى الميرزا الشّيرازيّ بوجوب الخروج في مظاهرات من أجل الاستقلال.

ولم تنقطع الكاظميّة بعد الاحتلال البريطانيّ الغاشم عن العمل الجاد في محاربته بكل ما أُوتيت من طاقات وقوى ماديّة ومعنويّة، بل كان لها من الدّور الكبير في مكافحة المحتل ما حمل «مِس بل» في رسائلها على وصف هذه البلدة بـ«المتطرّفة في إيمانها بالوحدة الإسلاميّة، والمتشدّدة في مناوأة الإنكليز».

[مِس بل، مستشرقة وموظفة في إدارة الاستخبارات البريطانيّة، كانت محور السّياسة العراقيّة في عهد الاحتلال الانكليزيّ، لُقّبت بملكة العراق غير المتوجّة، ماتت في بغداد سنة ١٩١٣م]

وحسبنا من نشاط الكاظميّة السّياسيّ في محاربة الاحتلال أن نقرأ ما كتبه الكاتب الإنكليزيّ «فيليب أيرلاند» إذ يقول ما نَصُّه: «وكان الشّعور المعادي لبريطانيا في الكاظميّة شعوراً قويّاً جدّاً، فقد هدّد العلماءُ جميعَ من يصوّت للاحتلال البريطانيّ بالمروق عن الدّين».

ثمّ حَسبُنا من ذلك النّشاط ما ذكره المؤرّخون مِن سَبق الكاظميّة في العمل ضدّ الاحتلال، ومن طبع المنشورات وتوزيعها سرّاً بتوقيع «الجمعيّة الإسلاميّة العربيّة»، الأمر الذي أقضَّ مضجع السّلطة العسكريّة المحتلّة.

بطاقة تعريف

* تقع مدينة الكاظميّة على بعد خمسة كيلومترات شمال غرب العاصمة العراقيّة بغداد، وعلى الضّفة اليُمنى لنهر دجلة الذي يقسم العاصمة إلى ناحيتَي الكرخ والرّصافة.
* تبلغ مساحتها ١٤ ألف م٢، وتحيط بها بساتين الفاكهة والثّمار من ثلاث جهات، وقد عمد نظام البعث البائد إلى مصادرة جميع هذه البساتين من أصحابها، وحوّلها إلى ملكيّات خاصّة لأقارب الرّئيس المخلوع، إلّا أنّها أُعيدت إلى أصحابها مع قيام الحكم الجديد، كما تعمّد النّظام البائد إدخال ظاهرة السّفور إلى المدينة بدءاً من العام ١٩٧٠م.
* تشتهر الأحياء القديمة في الكاظميّة بطراز معماري فريد، ميزته ما يُعرف بـ«الطّارمة» وهي الشُّرفة الصّغيرة، والنّوافذ البارزة المعروفة بـ«الشّناشيل».
* أهمّ شوارعها: شارع باب المراد، شارع القبلة، شارع باب الدّروازة، شارع قريش.
* **في الكاظميّة وجوارها عدّة مساجد تاريخيّة، أشهرها:**

– مسجد بُراثا، بين الكاظميّة وبغداد، وهو من أجَلِّ البِقاع، صلّى فيه أمير المؤمنين عليه السلام بمائة ألف من أصحابه عند عودته من قتال الخوارج، وبقربه مسجد فيه مشهد يقال إنّه للوصيّ يوشع عليه السلام، وقيل هو مشهد فَتى نبيّ الله موسى عليه السلام الذي صحبَه في سفره إلى الخضر عليه السّلام، وبالقرب منه مسجد فيه قبر، يُقال إنّه قبر البهلول.

* دُفن في الكاظمية عددٌ من الأعلام منهم: الشّريف الرّضي، وأخوه الشّريف المرتضى، والشّيخ المفيد، والشّيخ نصير الدين الطّوسي، كما دُفن فيها النّفر الذين استُشهدوا مع أمير المؤمنين عليه السّلام في النّهروان، وهم تسعة لا غير.
* كانت الكاظمية مركز الحوزة العلميّة الإماميّة، قبل أن يتسبّب الغوغاء من النّواصب في منتصف القرن الخامس بإحراق عددٍ كبير من المكتبات فيها، ما اضطرّ الشّيخ الطّوسي إلى الانتقال إلى النّجف الأشرف وتأسيس الحوزة فيها، وهو غير الشّيخ نصير الدّين المتقدّم ذكرُه.
* تؤكّد المصادر التّاريخيّة دخول المغول إلى الكاظميّة، وإعمالهم السّيف في أهلها، كما هدموا وأحرقوا جانباً من مقام الإمامَين الكاظمَين عليهما السّلام.